في ظلال سورة الأنفال

للشيخ أبي بكر الجزائري
المدرس بكلية الشريعة والواعظ
بالمسجد النبوى الشريف

(يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول) فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ، ان كنتم مؤمنين .

هذه السورة ايها الإخوة الصالحون تسمى سورة الأنفال ، لذكر لفظ الأنفال فيها ، وسماها بعض السلف بسورة بدر لاشتمالها على ذكر جوانب عديدة من غزوة بدر .

وهي السورة الثامنة من الكتاب ، وسابعة الطول اذا اخذنا برأي من يقول : إنها مع التوبة تكمل السبع الطول ، وذلك لاتحاد موضوعهما تقريباً ، ولعدم الفصل بينهما بالكلمة الشريفة ، ولإن سورة يونس الى المثين أقرب منها الى الطول ، وان عدها بعضهم أو جمهورهم رحمهم الله من السبع الطول .

والمواضيع التي تعالجها هذه السورة الكريمة هي اجمالاً : **العقيدة** بتركيزها وتعميقها في النفوس المؤمنة . **السلوك** بتهذيبه ، واصلاحه حتى يتلاءم مع العقيدة الإسلامية ، ويكون دليلها ، وبرهانا عليها ، **الجهاد** بذكر قوانينه وطرف من آدابه . **الغنائم** وحكم قسمتها وطريق توزيعها بين المجاهدين الأبرار . **المعاهدات** الحربية والسلمية وكيفية إبرامها وحلها .

هذه السورة ايها الاخوة الصالحون مفتتحة بكلمة : يسألونك عن الأنفال ، وهي جملة متضمنة لسؤال وجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم

بخصوص ملكية غنائم بدر ، واستحقاقها : أهي للشبيبة أم للشيوخ ؟ أللانصار هي أم للمهاجرين ؟ حيث وقع النزاع ، ذلك كما سيذكر بعد . وهذا السؤال الذي تضمنته هذه الجملة في قائمة هذه السورة ليس هو الأول ولا الأخير ، مما كان يوجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم من أسئلة مختلفة يحكيها الله سبحانه وتعالى بلفظ يسألونك عن كذا . . . ويلقن رسوله صلى الله عليه وسلم الإجابة عنها . وأعظم هذه الأسئلة كان يوجه من المؤمنين طلباً لشرح حكم ، أو تفسيراً لإجمال ، او كشفا لشبهه وذلك كسوءالهم عن القتال في الشهر الحرام ، وعما ينفقون من اموالهم ، وعلى من ينفقون ، وعن حكم الخمر والميسر ، وحكم خلط اموالهم بأموال يتاماهم ، وعن مخالطة الحائض ايام حيضها الى غير ذلك من التساؤلات والاستفسارات التي كان يتطلبها واقع المسلمين وهم في كل يوم يتلقون الجديد والمزيد من الأحكام والتشريع تكميلاً لهم واعداداً للخلافة في الأرض والوصاية على البشر وقيادتهم .

كما كانت بعض الاسئلة توجه من المشركين تكذيبا لمضمونها ، او استبعاداً لوقوعه كسوءالهم عن الساعة ، وعن موعد العذاب الموعدين به . كما كان البعض الآخر يوجه من اليهود تحديا للرسول وتعجيزاً له ، أو كشفا عن حقيقة دعواه النبوة ، ومدى صدقه فيها وذلك كسوءالهم اياه — فداه أبي وأمي — عن الروح ، وأصحاب الكهف ، وذي القرنين ، وعن قِرَي أهل الجنة : اول طعام يقدم لهم عند دخولهم الجنة . وعما يكسّب الولد شبهاً بأمه ، أو أبيه ، إلى غير ذلك من الأسئلة المعروفة في الكتاب الكريم ، والمعلومة في السنة الشريفة .

وكون الحق تبارك وتعالى يتولى الإجابة عن رسوله صلى الله عليه وسلم في هذه الأسئلة وفي غيرها تبيانا للأحكام ، وإنارة الطريق ، اودحضا للباطل ، ودفعا للشبهات هو تحقيق ولايته تعالى لأوليائه ، ومصداق قوله : «الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور » .

إنه ما عَرضت شبهة لوليّ من الأولياء ، ولا لنبي من الأنبياء إلا

وأزالها الله وليّ المؤمنين من قلوب اوليائه ، وأحل محلها نور المعرفة واليقين . ولا عُورضت دعوة الحق بحجة باطلة ، او طريقة ماكرة الاودحض الله حجة المبطلين ، وأحبط كيد الماكرين . يشهد لهذا ما ذكر برهانا على كونه تعالى يخرج اولياءه من الظلمات الى النور وذلك في مواقف ثلاثة **أولها** موقف ابراهيم وليّ الرحمن ، مع النمرود وليّ الشيطان حيث حاج الثاني بباطله ابراهيم في حقه ، فدحض الله الباطل بالحق فزهق ، وبهت الذي كفر . وأخرج ابراهيم من ظلمة الباطل الى نور الحق ، وهو ظافر منتصر . **وثانيهما** موقف النبي او الولى الذي مر بقرية وهي خاوية على عروشها : متهدمة البنيان خالية من السكان ، فَغِين على قلبه ماقال معه : أني يحي هذه الله بعد موتها ؟ فاخرجه الله من تلك الظلمة التي عرضت اقلبه بأن أماته ثم أحياه ، وأراه من آيات قدرته ما أشبعه يقيناً ورواه ، وهكذا جميل الله تعالى الوليّ مع من يتولاه .

وثالثهما موقف الخليل مع ربه : إذ قال : رب أرِني كيف تحي الموتى ، وكان الخليل لم يكتف في ايمانه بعلم اليقين فاراد الوصول به الى عين اليقين . فكان كمن عرضت له شبهة في ظاهرة الحياة كيف تكون ، وما كان ابداً من اهل الظنون او الفتون بل سوءاله دال صراحة على صدق إيمانه بقدره ربه إذ قال : ارني كيف تحيى الموتى ، ولم يقل كيف تقدر على احياء الموتى . وأجابه الله وليه ومولاه ، وأراه من مظاهر قدرته ما طمأن قلبه ، ودفعه الى مقام عين اليقين . وسلام على ابراهيم في المرسلين ، وكذلك يجزي الله المحسنين .

ووجه العبرة من هذا ايها الإخوة المسلمون أن العبد متى حقق ولايته لله بإيمانه الصادق ، وتقواه لله ، وتجرد لدعوة الخلق الى الخالق ليعبدوا ربهم ويوحدوه ويسلموا له قلوبهم ووجوههم ويطيعوه . متى كان العبد هكذا لن يعدم من الله تعالى نصره ولا تأييده ، ولا إرشاده ، ولا توفيقه ، ان تصدى له مبطل نصره عليه وهزمه بين يديه ، وان عرضت له شبهة كشفها له واعقبه نوراً في قلبه ، ان واجهته مشكلة ومهما كانت صعبة

أو عويصة وفقه لحلها ، وأخرجه منها معافى سليماً ، وعزيزاً كريما . والحمدلله وليّ المؤمنين ، ومنزل الكتاب ومتولى الصالحين هذا وأما الأنفال التي كانت مثار النزاع ، والتي اقتضت مصلحة الجماعة المؤمنة في حكم الله وليهم ومتوليهم ان يرد شأنها الى الله والرسول ، فيحكم الله فيها بما يريد . ولن يريد إلا الحق والخير —ويقسمها الرسول حسب أمر ربه ووحيه إليه . فإن قول المفسرين فيها مختلف غير ان المعنى لا يخطىء

ان الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية المعركة شجع المجاهدين بقوله من قتل كذا فله كذا ... ومن أسر كذا فله كذا . . . ولما انتهت المعركة بنصر حاسم للمسلمين حاول بعض الغانمين الاستئثار بما غنموه دون غيرهم من اخوانهم المجاهدين مما أثار بعض الخصومة . والنزاع الأمر الذي لا يمكن ان تقر عليه جماعة الإيمان بحال من الأحوال من أجل ما قد يؤدي اليه من الفوضى والخلاف ، وذلك مما لا يليق بهم ، ولا يتفق وحقيقة جماعة تؤمن بالله ، وتقاتل طول الحياة لحماية دين الله ، واولياء الله ، ولتأمين دعوة الحق بين الخلق.

فلذا لما اختلفوا وتساءلوا أجيبوا برد القضية لله ورسول الله : يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول . وامروا بتقوى الله عزوجل ، واصلاح ذات بينهم ، وطاعة ربهم ونبيهم وهذه من مقتضيات إيمانهم وهم مؤمنون . وأما الغنائم وقسمتها وقد ردت الى الله فسيحكم الله فيها بما هو الحق والعدل . وبما يحقق الخير للجميع .

قال تعالى :

(فاتقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)

قد اشتمل هذا القدر من الآية على الأمر بثلاثة أشياء هي في غاية الأهمية بالنسبة الى حياة الجماعة المسلمة وسعادتها في الدنيا والآخرة ، تلك هي الأمر بتقوى الله عز وجل ، واصلاح ذات بين الجماعة عند وجود فساد فيها بالفرقة والخلاف بين أصحابها ، وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بعد الإيمان بالله واليوم الآخر المهيىء لذلك والمعد له ، والمساعد عليه ،

أما التقوى فان عليها مدار كل إصلاح يراد للفرد أو الجماعة ، وبدونها لا يتحقق أي خير او إصلاح أبداً ، ومن هنا قدم الأمر بها على غيرها ، وكانت هذه الآية وصية الله الثابتة لهذه الأمة المسلمة ، ولمن سبقها من أهل الكتاب قال تعالى في سورة النساء : ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله .

ومعنى التقوى العام : خشية الله تعالى المالئة للقلب ، المسخرة لجوارح العبد في طاعة الرب تبارك وتعالى فعلاً وتركاً . وقد تطلق ويراد بها معنى خاص ، فتكون في كل مقام بحسبه ، ومن ذلك انها هنا بمعنى توقي سنة الله تعالى في الإقبال على الدنيا ، والتنافس فيها ، والجري وراء حطامها الفاني ، وما يجر ذلك من تحاسد وتقاطع ، وخلاف يفضي بالجماعة الى الهلاك والدمار .

وأما اصلاح ذات البين وبعد إصابتها بما أفسدها من الخلاف والنفرة ، فإن الأمر به من اوجب الواجبات والزم اللازمات ، إذ لو يسمح لمرض الخلاف أن ينتشر في صفوف الجماعة ، ولداء الحسد والبغضاء أن يستشري في جسمها ، لأودى قطعا بحياتها ، وأفضى بها الى هلاك محتم ، وخسران مبين ومن هنا أمر الله تعالى الجماعة المسلمة على الفور ولأول خلاف بدر منها أمرها باصلاح ذات بينها ، واحلال الوئام بين أفرادها محل الخلاف ، والود . والصفاء محل العداوة والبغضاء .

وأما طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم فإنها شعار الجماعة المؤمنة التي لا يمكن أن تتخلى عنه ، او تعيش بدونه ، إن منه تستمد نظامها وقوتها ، وكامل مقوماتها في الحياة . إن الجماعة المؤمنة بدون الطاعة الكاملة لله ورسوله لا يمكن أن تكون شيئا في الوجود ، او تحقق لها خيراً ما في الحياة . ولعل هذا هو السر في الأمر بها في هذا المقام بعد الأمر بالتقوى ، والطاعة لله والرسول داخلة فيها ولفظها يشملها قطعاً وبدون جدال . فكان الأمر بالطاعة لله والرسول بعد الأمر بالتقوى مشعراً بأهمية الطاعة للجماعة

المؤمنة ، ومهيجا لها على الاستعداد وتوطين النفس عليها لتؤديها كاملة في المنشط والمكره ، والعسر واليسر .

وأخيراً قوله : **إن كنتم مؤمنين** فإن هذه الجملة الشرطية ذات مدلول خاص في هذا السياق من الكلام ، فإنه يؤتي بها بعد الأمر أو النهي للتهييج على الطاعة والحمل المؤكد على الامتثال ، لأن الإيمان هو الطاقة المحركة للمؤمن ، والإرادة الموجهة له ، فبدون الإيمان لا يتأتى للعبد ان يطيع ويخلص ، أو يعمل ويصدق بحال من الأحوال ، حتى صار في عرف قانون الإيمان لا يعرف ايمان حقيقي بلا عمل صالح ، ولا عمل صالح بلا إيمان .

ومن هنا حسن ان تذكر هذه الجملة بعد الأمر بالتقوى ، واصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول ، تذكيرا بالإيمان ، وتهييجاً للنفوس على العمل ، وتهديداً لها بسلب الإيمان الذي هو خاصيتها وأغلى ما تملك ، اذا هو لم يوجد له أثره في الطاعة والسلوك .

ولذا يُقدّر جواب هذا الشرط محذوفا استغنى عن ذكره بذكر ماسيقت لتأكيده من امتثال الأمر ، والتسليم بالطاعة . والتقدير : ان كنتم مؤمنين فاتقوا الله ، واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله .

هذا . . وموجز القول في هذه الآية الكريمة : أن المجاهدين من أهل بدر لما انتهت المعركة بنصرهم على أعداء لا اله الا الله وأعدائهم اختلفوا في شأن قسمة الغنائم المعبر عنها في الآية بالأنفال حيث اراد الشبان الاستئثار بها دون الشيوخ بدعوى أن أثرهم في المعركة كان أكبر . ولم يرض لهم الشيوخ بذلك فرفع النزاع الى الرسول صلى الله عليه وسلم ونزلت الآية : يسألونك عن الأنفال الخ . . . فرد الله ملكيتها اليه والى رسوله حسماً للخلاف وقطعا لشجرته ، وأمر المتنازعين فيها بتقواه عز وجل ، واصلاح ذات بينهم ، وبطاعته وطاعة رسوله مذكراً إياهم بالإيمان الذي هو أصل كل خير ومفتاح كل سعادة . وبعد تسع وثلاثين من هذه الآية نزلت آية أربعين تبين قسمة ما اختلفوا فيه من الأنفال « واعلموا انما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ، وللرسول ولذى القربى الآية . فجعلت الغنيمة

خمسة أقسام ، قسما لله وللرسول . . وأربعة أقسام للمجاهدين عموماً من كان له أثر في المعركة كبير او لم يكن له سوى وجوده فيها بنية الجهاد .

ما في الآية من الهداية القرآنية :

نختم درس هذه الآية الشريفة ببيان بعض ما اشتملت عليه من الهداية القرآنية وذلك (١) الجماعة المؤمنة اذا اختلفت في شيء ترد أمره الى الله ورسوله للحكم فيه بما هو الحق والخير قال تعالى في توجيه هذه الجماعة المؤمنة : وان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ، ولهذا ردوا امر خلافهم الى الرسول وحكم الله فيه بما هو الحق والخير لهم . (٢) الميل الى الدنيا والرغبة فيها طبع هذا الإنسان ، وعليه فانه اذا لم يجد من التربية الالهية والتوجيه النبوي ما يقوم به طبعه ، ويخفف من حدته ، ويقلل من تأثيره على سلوكه ، أودى به طبعه وأهلكه ، والعياذ بالله تعالى . فلولا عناية الله بأهل بدر ، وما اولاهم من تربية وتوجيه لهلكوا بخلافهم او لأفضى بهم الى مشارف الهلاك على الأقل . (٣) الجماعة المسلمة المهيئة لقيادة البشر لا ينبغي لها ان تتورط في حب المال وجمعه ، ولا الانغماس في الترف والشهوات ، فإن ذلك يقعد بها قطعا عن بلوغها اهدافها وغاياتها في اصلاح الخلق . (٤) تقوى الله عز وجل خير ما يوصف من دواء لعلاج النفوس وتطهير القلوب ولذا لما بدا من أهل بدر ما قد يرى أنه ناجم عن مرض الشهوة في حب المال والرغبة فيه ، أمرهم الله بالتقوى ، وحثهم على الطاعة لله والرسول صلى الله عليه وسلم . (٥) الجماعة المسلمة لا بد لها من قيادة عليا تجمعها اليها عند كل خلاف ، او تصادم في أى امر من الأمور الدنيوية والدينية على حد سواء . (٦) المبادرة الى القضاء على كل سبب للفرقة او الخلاف بين الجماعة المؤمنة ابعاداً لها من ورطة العداوات والبغضاء . (٧) إعداد افراد الجماعة المؤمنة بطاعة الله والرسول لأن يكونوا اسرع إجابة لنداء الواجب ، وأكثر تلبية لصوت الحق كلما قال هلم لجهاد ونصرة .